الحياة السياسية

في صدر الدولة العباسية

— ٢ —

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

وفي عهد المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) اشتد الخلاف بين فرق الأتراك، فطلبوا أن يكون القائد الأعلى للجيش أحد إخوة الخليفة، وألا يرأسهم أحد منهم، فولى المعتمد أخاه الموفق أمر الجيش والولايات عام ٢٥٧ هـ، وبعد قليل أصبح السلطان الفعلي للموفق لا للمعتمد، وصارت كلمته هي العليا على الأتراك وقوادهم، فكبح غير قليل من جماحهم وأثر ذلك في حسن الأحوال قليلاً.

وسار المعتضد بن الموفق في خلافته (٢٧٩ — ٢٨٩هـ) سيرة أبيه، فعمل على رفع شأن الخلافة، والحد من نفوذ الأتراك بقدر ما استطاع، ولم يحابهم على حساب القانون والعدالة، فاقتص من تركي ارتكب معصية [١]، وقتل قائداً تركياً قتل غلاماً له ومدحه ابن الرومي على ذلك [٢]، وفي المعتضد يقول ابن المعتز من أرجوزته في تاريخه:

قام بأمر الملك لما ضاعا ... وكان مهيباً في الورى مشاعا

وكل يوم ملك مقتول ... وخائف مروّع ذليل

وكل يوم مغضب وغضب ... وأنفس مقتولة وحرب

---

(١) راجع كتاب الحضارة جزء ١ ص ١٥٢ (٢) ديوان ابن الرومي ص ٣٠٣

وكم فتاة خرجت من منزل فغصبوها نفسها في المحفل
ويطلبون كل يوم رزقاً يرونه ديناً لهم وحقا
كذاك حتى أفقروا الخلافة وعودوها الرعب والخافة

ومات المعتضد، فسار ابنه المكتفي (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) في خلافته بسيرة والده، من الحزم والعزم والأخذ على يد الأتراك.

وبعد وفاته ولى الأتراك أخاه المقتدر المرشح بعده، وكان طفلاً صغيراً، وأيدوا عرشه ببطشهم وظل خليفة الى عام ٣٢٠ هـ

❖

وهكذا كانت أمور الدولة في العصر العباسي الثاني تسير في طريق بعيد عن المألوف وتتجمع كل سلطة ونفوذ في يد الأتراك، الذين لم يبالوا بشيء في سبيل أهوائهم وشهواتهم واعتدوا على قدسية الخلافة وجلال الخلفاء. وكانوا كثيراً ما ينهبون الدور، ويتعرضون للحرم والغلمان، فكرههم الناس كرهاً شديداً، وكان نفوذهم في الدولة جرحاً دامياً يؤلم كل عربي صميم، حتى هجا دعبل المتوفى ٢٤٦ هـ المعتصم لشدة تعصبه لهم:

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وهمك تركي عليه مهانة فأنت له أم وأنت له أب

ويقول العلوي صاحب الزنج م ٢٧٠ هـ:

بني عمنا وليتم الترك أمرنا ونحن قديماً أصلها وعمودها
فما بال عجم الترك تقسم فيئنا ونحن لديها في البلاد شهودها
فأقسم لا ذقت القراح وإن أذق فبالغة عيش أو بياد عميدها [1]

وقد قام الشعب بعدة ثورات، أهمها ثورة عام ٢٤٩ هـ التي اشترك فيها الجند الشاكرية، وقضى عليها الأتراك بعنف وقوة. وقد حاول بعض زعماء الأتراك التخفيف من حدة شعور الرأي العام وبغضهم، وقاموا بدعايات كثيرة، كان من أبرعها رسالة كتبها الجاحظ بإيحاء الفتح بن خاقان وحاول بها إيجاد جو من الثقة والتفاهم والألفة بين الأتراك وجمهور الشعب وقد قدمها الجاحظ الى الفتح، والظاهر أنه كتبها في أيام المعتصم، ولكنها

(١) زهر الآداب ج ١ ص ٣٣١

لم تصل إليه بفعل حاشيته من الفرس والعرب ، فأراد كتابتها من جديد في عهد المأمون ، ودعا فيها إلى إعادة الاعتبار للعناصر ، وأشاد فيها بالأتراك وبطولتهم إلى حد تمجيده [1] وهذه المحاولة وسواها من المحاولات قد فشلت جميعاً في الوصول الى الهدف المنشود.

وامتاز العصر الثاني بنفوذ الغلمان فيه ، وخاصة في آخره وهي عهد المنتصر ، الذي كان عنده أحد عشر ألف خادم من الروم والسودان [2] ، وتولى كثير من الخدم قيادة الجيوش وأهم الأعمال في الدولة ، كبدر غلام المعتضد ، الذي تولى قيادة الجند ، ونقش اسمه على الأعلام ، وأبلى في خدمة مولاه بلاء حسناً ، حتى قتل في سبيله عام ٢٨٩ هـ

ونشطت النساء ، وكثر نفوذهن أيضاً في الدولة ، وكان معظم ذلك في عهد المقتدر لتسلط الخدم والحجاب.

وفي ظلال هذه الفوضى السياسية ، استقلت كثير من البلاد عن خلفاء بغداد ، وأهم هذه الدول المستقلة : الدولة الطولونية بمصر (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) وهي تركية ، والدولة الاخشيدية بمصر (٣٢٢ — ٣٥٣ هـ) ، وهي تركية أيضاً ، والدولة الطاهرية بخراسان (٢٠٥ — ٢٥٩ هـ) وهي فارسية ، والدولة السامانية في ماوراء النهر (٢٦١ — ٣٨٩ هـ) وهي فارسية أيضاً ، والدولة الصفارية بفارس (٢٥٤ — ٢٩٠ هـ) ، والدولة الدلفية بكردستان (٢١٠ — ٢٨٥ هـ) وهي عربية ، والدولة العلوية بطبرستان (٢٥٠ — ٣١٦ هـ)

كما حفل العصر العباسي الثاني بكثرة ثورات العلويين وخروجهم على الخلافة ، مما تجد أخباره وتفاصيله في مقاتل الطالبيين ، وسبب ذلك راجع الى اضطهادهم واضطهاد شيعتهم.

فقد كثر اضطهاد الشيعة في هذه الفترة الحافلة ، وأسرف في ذلك المتوكل على الله ، فانه لما تولى الخلافة اضطهد الشيعة ، وشدد النكير عليهم ، وصادر أموال العلويين وشيعتهم ، وغالى في تشريدهم ، وأمر في عام ٢٣٧ هـ بهدم قبر الحسين بكربلاء [3]

وكان الرشيد يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم [4] ، من حيث كان المأمون يرعى العلويين.

---

(١) راجع رسالة الجاحظ في مناقب الترك وهي في أول رسائل الجاحظ

(٢) راجع التمدن ج ٤ ص ١٧٥ ، وآداب اللغة لزيدان ج ٢ ص ١٥٤

(٣) ٢٨٩ ج ٣ محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية للخضري بك ، ١٩٤ ج ٢ وما بعده ، ابن الاثير

(٤) العقد ج ١ ص ٢٣٩

ولا يؤذي أحداً منهم [١].

وكان المتوكل يبغض المأمون والمعتصم والواثق لحبهم لعلي [٢]، وكان شديد البغض لعلي وأهل بيته، وذلك راجع لموضع حرّولته من الترك ولسلطان الأتراك في الدولة، وتاريخ الأتراك مملوء بكرههم التشيع والشيعة، وبالحروب المتصلة بينهم وهم سنيون وبين الفرس وهم شيعة. وبذهاب الشيعة ونفورهم من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها، وغلبت السنة على الدولة من ذلك الحين.

وسرت في الدولة بعد المتوكل موجة اضطهاد العلويين والشيعة، فالمنتصر كان يقاوم العلويين كأبيه [٣]، وتذكر بعض المصادر أنه أراد أن يحسن صلته بالبيت العلوي ولكن لم تطل مدته [٤].

ولكن عهد المعتضد كان عهد خير على العلويين، فانه لم يتعرض في أيامه لهم ولا آذاهم ولا قتل منهم أحداً [٥].

وكان البعض يشنع على آل أبي طالب عند المكتفي فنهاه عنه [٦]. . وعلى الجملة فان أغلب هذا العهد كان عهد محنة واضطهاد للعلويين ومن والاهم.

❖

هذه هي أهم المظاهر السياسية والأحداث الكبرى في هذا العصر، ولا شك أن لهذه الجوانب السياسية أثرها في المجتمع وفي الثقافة والأدب والشعر، مما سنفصل الكلام فيه في البحوث التالية.

(١) راجع مناظرة المأمون للفقهاء في تنزيل على ص (٢٢٩ — ٢٨٦ ج ٣ العقد)
(٢) ظهر الاسلام ص ٤١ ج ١
(٣) الادارة الاسلامية لكرد علي ط ١٩٣٤ ص ١٧٣
(٤) ظهر الاسلام ص ٤٤ ج ١
(٥) الفرج بعد الشدة ص ١٣٣ ج ١
(٦) الاغاني ص ١٤٣ ج ٩